المحاضرة الأولى: نبذة عن الفكر الاجتماعي والسياسي في العصور القديمة

أولا: الفكر الاجتماعي

01-مفهوم الفكر الاجتماعي : يعرف الفكر الاجتماعي بأنه صورة المجتمع التي يحملها الفرد في عقله، وعند فحصها تظهر بعض العناصر المستقلة عنها، والتي تدعى بالأفكار، كما يعرف بأنه الطبيعة الغالبة لنمط من الأفكار التي يتبناها المجتمع أو الجماعة، ويعرف أيضا بأنه منظومة الأفكار والعقائد التي تقف خلف أسلوب حياة كل فرد وكل جماعة إنسانية متجانسة في أي مرحلة من مراحل تاريخها، ويؤدي ذلك إلى منح الجماعة درجات محددة من الحس بالانسجام والوحدة من الناحيتين الفكرية والعاطفية.

والفكر الاجتماعي هو فكر الأفراد عن المسائل الاجتماعية، وبهذا المعنى فان الفكر الاجتماعي هو التفكير في مشاكل المجتمع من جانب شخص آو عدد من الأشخاص في الماضي أو في الحاضر.

وعموما فالفكر الاجتماعي يقصد به، الأنشطة والفعاليات والممارسات وأشكال التفكير البسيط التي عرفتها المجتمعات البشرية منذ بداية نشأتها، والتي ما لبثت أن تطورت وتنامت بالتدريج عبر مختلف المراحل التاريخية المتعاقبة، وشكلت في نهاية المطاف ما صار يسمى الآن ب "علم الاجتماع"

-علم الاجتماع: يقصد بهعموما ذلك العلم الذي يدرس الظواهر والحوادث الاجتماعية (او المجتمعية)، دراسة موضوعية تحليلية، الهدف منها استخلاص القوانين التي تخضع لها تلك الظواهر والحوادث.

وبالتالي يمكننا القول أن هناك فرقا واضحا بين علم الاجتماع كمحصلة نهائية وبين الأسباب والعوامل والمؤثرات والروافد المختلفة التي ساهمت في تكوينه وجعله علما مستقلا قائما بذاته، ولعل ابرز ما يتجلى فيه هذا الفرق هو أن الأول (علم)، في حين أن الثاني ليس علما، وإنما هو مظاهر للنشاط الفكري البسيط، وممارسات وانطباعات، تتخذ شكل الآراء والتشريعات والقوانين التي حاول من خلالها ذوو الشأن في المراحل الأولى من تطور المجتمع البشري تنظيم حياة أفراد البشر وعلاقاتهم، سواء علاقاتهم ببعضهم البعض أو بعوامل البيئة المحيطة بهم.

02-نشأة وتطور الفكر الاجتماعي في العصور القديمة

إن من ابرز خواص الإنسان باعتباره كائنا حيا، انه كائن يفكر بشكل مستمر، وهذه الخاصية هي التي تميزه عن غيره من الكائنات الحية الأخرى، وتبدأ رحلة هذا التفكير مع بداية الخليقة، فقد عاش الإنسان بيئة مادية واجتماعية، وتأمل فيهما وخرج بأفكار ساعدته على التكيف مع ظروف البيئة المادية، سواء كان تكيفا ايجابيا أو سلبيا، كما ساعدته على التعامل مع أقرانه وزملائه من أبناء المجتمع الذي يعيشون فيه.

إن تاريخ الفكر يتضمن المحاولات التي بذلت على امتداد الزمن لتسجيل حركة المجتمع، إلا أن الإنسان قد تفوق في فهمه لبعض الظواهر الطبيعية على فهمه للظواهر الاجتماعية ومغزاها وأبعادها، ذلك أن الطبيعة كانت هي السياج المحيط بالإنسان منذ نشأته الأولى، والتي مثلت تحديا لحياة الإنسان واستقراره.

رغم أن الكثير من الدارسين يرجع البدايات الأولى للتفكير الاجتماعي إلى فلاسفة اليونان، الذين حاولوا ولأول مرة التعبير خلال فلسفاتهم عن الصورة المنظمة للتفكير الإنساني، إلا أن هذا ينبغي أن لا يجعلنا نغض النظر عن التربة الخصبة التي هيأت بدورها الأسباب لتلك البدايات، ونقصد هنا ما شهدته (بلاد الشرق) من حضارات وبرزت في إطارها وفي ازدهارها مظاهر للتفكير الاجتماعي، وأبرز تلك الحضارات هي حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل.

03-الفكر الاجتماعي في حضارة وادي الرافدين:

إن المظاهر الاجتماعية المختلفة التي تخللت حضارة وادي الرافدين تعكس لنا إلى حد ما ما كان يجول في عقول أفراد ذلك المجتمع من تصورات وميول وأهواء، لا ترقى بالتأكيد إلى مستوى الفكر النظري، إلا أنها قد مرت بأذهان القائمين بها قبل أن تتحول إلى ممارسات وطقوس وفعاليات وأنشطة عملية.

العقيدة الدينية وأثرها على نشاط المجتمع

إن العقل الإنساني لم يتوقف عن التأمل في الظواهر الطبيعية المحيطة، الأمطار والسيول والرعد، وكذا الحرارة الشديدة، وكان حينما يستغرب هذه الظواهر يلجأ إلى التفسير الديني، سواء في حالة الاعتقاد بآلهة متعددة آو في حالة الاعتقاد باله واحد، أي أن التفسير الديني للظواهر قد جاء في مرحلة تالية للتفسير الغيبي آو الميتافيزيقي، الذي كان يعزو الظواهر لوجود قوى خفية فيما وراء الطبيعة هي التي تحركها.

تميزت بلاد الرافدين أنها كانت تشهد إيقاعا كونيا قاسيا ومضطربا على الدوام، فنهرا دجلة والفرات غالبا ما يفيضان على غير انتظام فيحطمان السدود التي أقامها الإنسان لدرء أخطارهما، ويغرقان مساكنه ومزارعه، إضافة إلى أن البلاد كانت تشهد على الدوام هبوب رياح لاهبة، تخنق المرء بغبارها، كما تشهد المنطقة بين الآونة والأخرى هطول أمطار غزيرة متواصلة تحول الصلب من الأرض إلى بحر من الطين، تعرقل حركة الإنسان وتعوق انتقاله.

يبدو أن عدم انتظام الظواهر الطبيعية واضطرابها، قد انعكس على وعي الإنسان الذي كان يعيش في بلاد الرافدين قديما، فقد بدت الطبيعة بالنسبة إليه وكأنها تبطش به وتتحكم بمشيئته، وتتدخل في تحديد مصيره، الأمر الذي جعل الإنسان الرافديني يشعر بالضعف، وبالتالي الخوف إزاء قوى طبيعية هائلة، فكان رد الفعل الذي أبداه الإنسان الرافديني هو اللجوء إلى التدين، فقد مثل الدين انعكاسا خياليا داخل الوعي الاجتماعي لعلاقات أفراد البشر مع الطبيعة، ففي البدايات الأولى لتأريخ المجتمعات البشرية كانت قوى الطبيعة هي المتحكمة بأفراد البشر ومصائرهم، وبقدر ما يتعلق الأمر بالمجتمع الرافديني فان عقيدته الدينية في أطوارها الأولى المبكرة جدا قد قامت على عبادة قوى الطبيعة التي ما لبث أن عمد إلى تجسيدها على هيئة آلهة.

بقي الإنسان القديم في بلاد الرافدين يشعر بتلك العلاقة الوثيقة بالطبيعة، حتى بعد أن قامت المدن بشكلها العامر الذي احتضن حشودا كبيرة من البشر، إذ أن سكان المدن لم تنقطع صلتهم بالأرض كونهم يعتاشون منها، فظل الإنسان الرافديني يجهد من اجل ضمان استمرار هذا الترابط بينه وبين الطبيعة، وكانت الاحتفالات الدينية الأداة المؤدية إلى ذلك.

يبدو أن قوى الموت وأسبابه كانت تختفي مع انتهاء فصل الشتاء وتنتصر قوى الحياة والانبعاث والتجدد مع بدء فصل الربيع، فكان الإنسان الرافديني يودع أخطاءه ويأسه واخفاقاته، متطلعا إلى آمال ونجاحات جديدة، يتطلع إلى أن تغمره مع حلول السنة الجديدة، فجعل من طقوس رأس السنة مناسبة للاحتفال بتجديد الحياة بكل تفاصيلها ومظاهرها، فكانت كل سنة تشهد عملية خلق جديد للكون. ولم تكن الطقوس تقتصر على ذلك فقط، بل كانت تشمل أيضا طقوسا رمزية تجري على مستوى السلطة التي تدير المجتمع، إذ كانت هذه السلطة ممثلة في شخص الملك، تخضع هي الأخرى لعملية تجديد كل سنة، ففي بداية فصل الشتاء، كان يقام احتفال ديني خاص في المعبد، يحضره رجال الدين وعامة الناس، أو من ينوب عنهم لكي يسمعوا اعترافات الملك، بعدما يتم تجريده من سلطاته من قبل رئيس الكهنة، فتجري عملية مراجعة للأعمال التي قام بها الملك، لمعرفة أخطائه وقراراته الخاطئة وأفعاله السيئة واعترافه بها، أمام رئيس الكهنة وأمام رعيته، وبعد أن يتطهر الملك من آثامه وخطاياه يعيد رئيس الكهنة إلى الملك سلطاته مجددا، وتبعا لذلك يمكن القول أن عملية التجديد التي كان يشهدها المجتمع الرافديني القديم، كانت تحدث على مستويين هما: تجديد على مستوى السلطة السياسية العليا، وتجديد على مستوى الحياة اليومية ل لمجتمع الإنساني، حسب تغيرات مناخية وأحداث كونية.

-نظام الحكم : إن الإنسان منذ وجوده لم يعش بمعزل عن غيره من أفراد من نوعه من البشر، حيث عرف الحياة الاجتماعية بشكل متدرج بدءا من الأسرة إلى العائلة الكبيرة الموسعة، ثم القبيلة... وفيما يتعلق بمجتمع بلاد الرافدين القديم يمكن القول انه قد تكون من طبقتين أساسيتين هما:
01- الطبقة الحاكمة : (الفئة الدينية- الفئة البيروقراطية- الفئة العسكرية)

02 -الطبقة المحكومة: (فئة الأحرار- فئة العبيد)

-الأسرة : كان الزواج بمثابة الدعامة الرئيسية للحياة العائلية في مجتمع بلاد الرافدين، وكان القانون لا يسمح للرجال إلا بزوجة شرعية واحدة، غير أن ذلك لا يمنع -كما يستفاد من قانون حمورابي والقوانين الاشورية- أن يتخذ الرجل أكثر من محظية (جارية) تمكث في بيته وتعيش في حياة الحريم، ويمكن في كثير من الأحوال أن ترقى إحدى المحظيات إلى مكانة الزوجة الشرعية، ولكن بشرط أن يعلن الزوج ذلك صراحة في وثيقة رسمية وأمام بعض الشهود.

أما إجراءات الزواج فكانت تقتضي في المقام الأول: رغبة الطرفين (الفتى —الفتاة)، رضى والدي الطرفين (أما المرأة المطلقة او الأرملة فان لها الحق أن تختار زوجها بإرادتها)، ولا يمكن للزواج ان يكون صحيحا إلا إذا تم إثباته بوثيقة مكتوبة تضفي عليه الشرعية.

أما مكانة المرأة في مجتمع بلاد الرافدين فإنها كانت تتمتع بمركز جيد، بل انها كانت مساوية للرجل، حيث كان يسمح لها بالعمل في التجارة والاضطلاع بالوظائف الإدارية المختلفة، كما كانت تتمتع بالشخصية القانونية الكاملة، أما على مستوى الأسرة فإنها كانت تخضع لسلطة الزوج، فكان بإمكانه أن يرهن زوجته لدى دائنه حتى سداد دينه، على أن لا تتجاوز فترة رهنها ثلاث سنوات، كما يستطيع إذا ثبتت خيانتها أن يبيعها على سبيل العقاب.

04-الفكر الاجتماعي في مصر القديمة:

-التدرج الطبقي: كان البناء الاجتماعي مرتكزا على تقسيم طبقي، في قمة هذا البناء الطبقي يجلس الفراعنة باعتبارهم حكاما سياسيين، آلهة أو أشباه آلهة، آو منحدرين عن الآلهة، لذلك كانوا يجمعون في أيديهم بين السلطة الزمنية والدينية، ويلي هذه الطبقة طبقة الكهنة الذين يقومون بالخدمة في المعابد، ثم طبقة قادة الجيش القائمون على حراسة الأماكن المقدسة، ثم طبقة الفنيين والصناع، وأخيرا طبقة الفلاحين، ويرتكز هذا النظام كله على النظام الديني، وعندما يتغير النظام الديني تتغير النظم السياسية والاقتصادية والعكس صحيح، ويرجع ذلك إلى أن الفكر الاجتماعي كان يصور الآلهة المحليين ليس فقط أنهم مجرد آلهة، وإنما أيضا قادة حربيين ورؤساء سياسيين، أي أن الإله له السيطرة على كل النواحي الدينية والحربية والسياسية، فإذا انتصرت مدينة على مدينة أخرى فان آلهة المدينة الغالبة تصبح الآلهة الأكبر بالنسبة لآلهة المدينة المغلوبة، لذلك سارت فكرة التوحيد في الديانة المصرية القديمة جنبا إلى جنب مع فكرة الوحدة السياسية للدولة المصرية القديمة، فبعد أن أصبح للسلطة الدينية سلطة مركزية في النواحي السياسية والاقتصادية، وهو ما ساعد على نشأة تشريعات وقوانين عامة بالنسبة للدولة، هذه القوانين صارت تحكم سلوك الأفراد وعلاقاتهم ومعاملاتهم بعضهم ببعض، ويتضح من كل هذا أن التفكير الاجتماعي كان يحمل في ثناياه بوادر النضوج التشريعي والقانوني إلى جانب بوادر التنظيمات الاجتماعية.

-**الأفكار الدينية**: كانت الطقوس الدينية لقدماء المصريين تعكس حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والفنية، كما كانت السلطة السياسية ترتكز على الحكومة الدينية التي جعلت من الفراعنة آلهة وجعلت من الكهنة طبقة الأشراف المثقفين والقضاء.

كان الآلهة الوظيفيون يجسدون اهتمامات المجتمع المصري القديم، فمصر كبلد زراعي تحتاج إلى ضمانات لنجاح الإنتاج الزراعي والحيواني، فكان هؤلاء الآلهة خبراء فنيين يضمنون التقدم في الزراعة وتربية الحيوان، فهناك اله للأرض يدعى "نوت"، ويتبع هذا الإله عدد من أرواح الآلهة، ومنها "حابي" الذي يروي الأرض، كما أن هناك اله للحبوب وآخر للحصاد.

-نظام الحكم: يمكننا التمييز بين قسمين أساسيين في المجتمع المصري القديم هما:القسم 01- يضم كلا من الحكام: -الحكام من المستوى الأول (الملك- الفرعون- الإله، وأفراد أسرته)، المستوى الثاني (مستشاره الأكبر وهو الوزير ويسمى أمير)، المستوى الثالث (مجلس العشرة الكبار الذي كان يتألف من موظفي الدولة عموما)

القسم 02-يضم المحكومين والمؤلف من عامة شرائح المجتمع، وكان يتسم بالتدرج الذي يقوم على أساس مهنة الفرد، وفي أدنى مراتب السلم الاجتماعي تكمن فئة العبيد.

-الأسرة: كان نظام الزواج في المجتمع المصري القديم نظاما فرديا، أي أن الرجل لا يحق له الزواج بأكثر من امرأة واحدة، غير أن رجال الدين والكهنة كان لديهم امتياز ممارسة تعدد الزوجات، كما أنه مما يلاحظ أن العائلة المالكة قد تميزت بوجود ظاهرة زواج الأخ من أخته، ويمكن إرجاع سبب ذلك إلى اعتبارات خاصة بالسلالة الملكية التي ساد الاعتقاد أن الدم الإلهي يجري في عروق أفرادها، وبالتالي الحفاظ على نقاء وصفاء هذا الدم.

أما إجراءات عقد الزواج في المجتمع المصري القديم فكانت تقوم على الحرية الفردية في اختيار شريك الحياة، وكان عقد الزواج يكتب على وثيقة رسمية يتعهد فيها الطرفان (الزوج والزوجة) بالوفاء ببعض الالتزامات تجاه بعضهما البعض.

05-البداية الفعلية للفكر الاجتماعي:

يمكن القول أن أول محاولة (نظرية) للبحث في الإنسان وعلاقاته بغيره، المجتمع وموقع الفرد منه، القانون والعرف والعلاقة بينهما، ودور كل منهما في تنظيم سلوك الإنسان ضمن نطاق الجماعة، وغيرها من القضايا الاجتماعية قد جرت في ظل الحضارة اليونانية، وتحديدا في القرن الخامس قبل الميلاد، ومعها بدأت مسيرة 'الفكر الاجتماعي' التي انتهت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلى تأسيس ما صار يسمى ب'علم الاجتماع'. وقد بدا للباحثين في تاريخ الفكر الاجتماعي وقضاياه ان هذه المسيرة لم تكن على وتيرة واحدة، وإنما شهدت مراحل تخللتها فترات، كان لكل منها طابع مميز.

ثانيا: الفكر السياسي

01-**مفهوم الفكر السياسي**: يرى بعض المفكرين انه الايديولوجيا بمعناها الواسع، ولا يخرج عن هذا المعنى العام لهذه الأخيرة إلا العلم باعتبار انه كلي لا موطن له، وبالتالي فإنهم يؤكدون أن الفكر السياسي هو أداة إنتاج الأفكار، منها ما يصنف داخل دائرة الايديولوجيا أو داخل دائرة العلم.

ساير الفكر السياسي مختلف الحضارات المستقرة وارتبط بنشأة الدول وظهورها مع الكيانات السياسية التي تتطلب بشكل آلي وبضرورة قصوى نظما وقوانين لضبط نظام الحياة، وبالتالي ظهرت النظريات السياسية التي عرفها العالم القديم، بل مع أولى الحضارات التي نشأت في ارض العرب خاصة في بلاد مابين النهرين قبل الحضارة الإغريقية التي هي ولادة لحضارة الفينيقيين الشامية العربية.

إن دراسة الفكر السياسي لها أهميتها قصد معرفة تطور الأفكار السياسية، لان فهم الظاهرة السياسية في حاجة إلى الاستعانة بالأطر النظرية التي تراكمت بفعل مساهمات متنوعة ممتدة عبر الزمن، والفكر السياسي عموما هو مجموع القوانين والأسس والنظم السياسية التي وضعها المفكرون في محاولة لرسم صورة الدولة، وتنظيم العلاقات بين السلطة وأفراد المجتمع الذي تمارس فيه تلك السلطة.

اذن ارتبط الفكر السياسي بالحضارات المستقرة، وظهور الدول والكيانات السياسية المختلفة، مما تطلب وضع نظم وقوانين تضبط الحياة وتنظمها، ومن ثم ظهرت النظريات السياسية التي عرفها العالم القديم، والتي شملت فكرة الدولة، ماهية السلطة، ومصدرها، وغاياتها، وأشكال الحكومات، وارتباط الأفراد بها وكذا شرعيتها.

وتعكس الأفكار السياسية للمفكرين ظروفهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكذا الاتجاهات السياسية السائدة في محيطهم، وقد اختلف المفكرون في تعاملهم مع تلك الظروف، فقد بحث بعض منهم الصورة المثالية لما يجب أن يكون عليه الواقع (المقاربة المثالية)، وفيهم من حرص على الالتزام بدراسة ما كان واقعا في عصره (المقاربة الواقعية) والاكتفاء بوصفه، ولذلك فقد اختلفت نتائج أعمالهم وأفكارهم السياسية.

يذهب الكثير من المفكرين إلى أن اليونان هم مصدر كل الفكر العالمي، متجاهلين بذلك الإسهامات التي قدمتها الحضارات السابقة أو اللاحقة لليونان، بينما يؤكد آخرون أن بداية الفكر السياسي لم تبدأ مع اليونان، بل سبقتهم إلى ذلك حضارات شرقية عديدة كالفرعونية في مصر، وحضارات مابين النهرين (السومرية، الاكادية، البابلية، الاشورية، الكلدانية)، والحضارات الصينية والهندية والفارسية والفينيقية.

02-الفكر السياسي في حضارة مابين النهرين: يعتبر السومريون واضعي الفكر السياسي في العراق القديم، والكون عندهم لا ينتمي إلى تنظيم بشري، والدولة العالمية التي تشمل بلاد الرافدين هي ملك للآلهة، وقد خلق الإنسان لخدمة الآلهة، وبالتالي لا يمكن لأي مؤسسة ان تجعل رفاه الإنسان هدفا لها، لان رفاه الآلهة هو الغاية الوحيدة، ويعتبر الفكر السياسي العراقي القديم قائم على دعامتين: الدولة القومية (وهي الكيان السياسي الأشمل –مجموع الدويلات- ويحكم الإله عن طريق وكيله البشري حاكم دولة المدينة)، والدولة المدينة (هدفها اقتصادي، تميزت بالتنافس والصراع من اجل الهيمنة على السلطة السياسية).

كان يستمد الأمراء شرعيتهم من الآلهة ليمثلوا الآلهة، كما عرف السومريون البرلمان السومري المكون من مجلس الشيوخ ومجلس أدنى يضم كل المواطنين القادرين على حمل السلاح. مما يعني أن البناء السياسي البرلماني كان مصدرا من مصادر التشريع ويستمد قوته من الدين.

وفي القرن الثامن عشر قبل الميلاد، توحدت السلالات العراقية على يد الملك حمورابي، وكان للمجلس التشريعي (مجلس الكبار) دور مهم في قيادة الدولة والأجهزة الرسمية الأخرى فضلا عن الوظائف المالية والقضائية والأمنية، ومن أشهر الملوك في بابل الملك حمورابي الذي استطاع توحيد الدويلات وإقامة العدل فيها، وأشهر مآثره قانون حمورابي، الذي كتب في 46 عمودا ارتفاعها 2.25م ومحيطها 1.9م، وشمل 285 مادة، ضمت أحكاما عقارية وتجارية، صناعية وأسرية، وقد ارتكزت القوانين السياسية في شريعة حمورابي على ضبط حقوق الأفراد وواجباتهم، وإنعاش النشاطات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة.